

القَصَصُ الدِّينِي
الحلقة الأولى
قصص الأنبياء

مَلِكُ رُشْدٍ حَلِيبٍ

عبد الحميد جودة السحار

١٠

بالقُرْب من الحدودِ المصرية في جنوبي فلسطين ،
كانتُ قبيلةٌ مدينَ تعيش ، وبجوارِها أراضٍ واسعة ،
غرسوا فيها بساتين وحدائق ذات بهجة ، تسمى
الأَيْكة .

وكان هؤلاء القومُ جميعًا يَغشُّون في البيعِ
والشراء ، فإذا باعُوا شيئًا نَقَصُوا المِكيالَ والميزانَ ،
وأَعْطَوْا الناسَ أَقلَّ من حقِّهم ، أما إذا اشْتَرَوْا فإنَّهم
يَزِيدُونَ الكيلَ والوزنَ ؛ وأَخَذُوا أَكْثَرَ من حقِّهم .
وكانوا يَخْرُجُونَ للإِغارة على المسافرين في
الطرق ، يَسْلُبُونَهُمْ وَيَنْهَبُونَ ما مَعَهُمْ ، وَيُؤْذِنَهُمْ وَلَا
يَخَافُونَ اللَّهَ في أَعْمَالِهِمْ . لأنَّهم كانوا يَعْبُدُونَ آلهةً
كاذبةً ، وَيَظُنُّونَ أَنَّها خَلَقَتْهُمْ .

فَأَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ شُعَيْبًا ، لِيَأْمُرَهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ ،
وَعَمَلِ الْخَيْرِ مَعَ النَّاسِ ، وَالصَّدَقِ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ ،
وَتَوْفِيَةِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ .

٢

ذَهَبَ شُعَيْبٌ إِلَى أَهْلِ مَدْيَنَ فَقَالَ لَهُمْ :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، وَلَا
تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ، إِنَّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ . وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا
الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ
أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . »

« قَالُوا : يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا
يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ، أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ » ؟

قَالَ : يَا قَوْمِ ! إِنَّي أُرِيدُ إِصْلَاحَكُمْ بِقَدْرِ مَا

أَسْتَطِيعُ ، وَلَيْسَ غَرَضِي أَنْ أُخَالِفَكُمْ وَأُنَازِعَكُمْ ، بَلِ
الْقَصْدُ أَنْ أَصْلِحَ أُمُورَكُمْ ، لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ أَنْ
تَبِيعُوا النَّاسَ أَقْلَ مِنْ حَقُوقِهِمْ ، وَتَأْخُذُوا مِنْهُمْ أَكْثَرَ
مِنْ حَقُوقِكُمْ ، وَلَا يَرْضَى بِأَنْ تَنْهَبُوا النَّاسَ
وَتُسَلِّبُوهُمْ .

قَالُوا : يَا شُعَيْبُ ! إِنَّا لَا نَفْهَمُ مَا تَقُولُ ، وَأَنْتَ
رَجُلٌ ضَعِيفٌ ، وَلَوْلَا أَقَارِبُكَ لَقَتَلْنَاكَ ، وَمَا أَنْتَ
عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ .

قَالَ : يَا قَوْمِ ، هَلْ أَقَارِبِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ،
الَّذِي أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ ، وَهُوَ الْقَوِيُّ الْقَادِرُ الَّذِي يَعْلَمُ
كُلَّ أَعْمَالِكُمْ ، وَيَقْدِرُ عَلَى إِهْلَاكِكُمْ جَمِيعًا ؟

قَالُوا : يَا شُعَيْبُ ! اذْهَبْ فَقُلْ لِرَبِّكَ يَا تُبْنَا بِالْهَلَاكِ
الَّذِي تَقُولُ عَنْهُ . وَلَا تُتْعِبْ رَعُوسَنَا بِالْكَلَامِ الثَّقِيلِ
الَّذِي لَا نَفْهَمُهُ .

وقال الذين استكبروا منهم : إن كنت نبيًّا فأسْقِطْ عَلَيْنَا قِطْعًا مِنَ السَّمَاءِ ، فنَعْرِفَ أَنَّكَ رَسُولٌ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ الَّذِي تَقُولُ عَنْهُ ، وَنَعْرِفَ أَنَّكَ مِنَ الصَّادِقِينَ .
وَأَمَّا النَّاسُ الطَّيِّبُونَ فَآمَنُوا بِهِ ، وَانْضَمُّوا إِلَيْهِ ، وَعَبَدُوا اللَّهَ مَعَهُ .

٤

عاد شعيبٌ إلى قريته (مَدْيَن) وَمَعَهُ الْجَمَاعَةُ الْمُؤْمِنُونَ ، وَكُلُّهُمْ مِنَ الْفُقَرَاءِ الطَّيِّبِينَ ، الَّذِينَ لَا يَنْهَبُونَ النَّاسَ ، وَلَا يَأْكُلُونَ حَقَّوْقَهُمْ ، وَلَا يَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ ، وَلَا يَسْلُبُونَ أَمْوَالَ الْمَسَافِرِينَ .
وَلَمْ يَسْكُتْ عَنْ دَعْوَةِ أَهْلِ مَدْيَنَ وَأَصْحَابِ الْأَيْكَةِ إِلَى اللَّهِ ، وَتَخْوِيفِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ إِذَا لَمْ يَرْجِعُوا عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ .

٣

وَذَهَبَ شُعَيْبٌ إِلَى أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ فَقَالَ لَهُمْ : « إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ؛ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولَى » (يَعْنِي الْأَجْيَالِ الْأُولَى قَبْلَهُمْ) .

« وَقَالُوا : إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (يَعْنِي الْجَانِّينَ الَّذِينَ أَصَابَهُمُ السَّحَرُ ، فَأَصْبَحُوا مَذْهُولِينَ) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ » .

وكان بعض الناس الطيبين ينضمُّون إليه ، فاغْتَاطَ الكفَّارُ المتكبرون ، ووقفوا في الطُّرُقِ يَمْنَعُونَ هَؤُلَاءِ الناسَ الطيبين من المرور ، والذهاب إلى شُعَيْب ، وكلٌّ مَن عَرَفُوا أَنَّهُ ذَاهِبٌ إِلَيْهِ آذَوْهُ وَضَرَبُوهُ ، وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُ .

فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ شُعَيْبٌ يَقُولُ :

- يا قوم لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ طَرِيقٍ ، تَخَوَّفُونَ النَّاسَ ، وَتَمْنَعُونَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ ، وَخَافُوا أَنْ يُعَذِّبَكُمُ اللَّهُ كَمَا عَذَّبَ قَوْمَ نُوحٍ ، وَقَوْمَ هُودٍ ، وَقَوْمَ صَالِحٍ فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ . أَوْ كَمَا عَذَّبَ قَوْمَ لُوطٍ ، وَهُمْ قَرِيبُونَ مِنْكُمْ فِي زَمَانِكُمْ ، وَقَرِيبُونَ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي تَعِيشُونَ فِيهَا .

« قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ : لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكُمْ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا » .

قال : إِنَّا لَنَعُوذُ فِي مِلَّتِكُمْ أَبَدًا بَعْدَ أَنْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ، وَقَدْ تَوَكَّلْنَا عَلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ بِالْحَقِّ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ .

هـ

وَاسْتَمَرَ الْقَوْمُ يُؤْذُونَ أَتْبَاعَ شُعَيْبِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ :

- ارْجِعُوا خَيْرٌ لَّكُمْ فَإِنَّكُمْ سَتَخْسَرُونَ بِاتِّبَاعِكُمْ هَذَا الرَّجُلَ الضَّعِيفَ الْفَقِيرَ . تَعَالَوْا مَعَنَا : فَنَحْنُ الْأَغْنِيَاءُ الْأَقْوِيَاءُ .

فِيَجِئُهُمُ الْمُؤْمِنُونَ :

- كلا ! لن نعود إلى الكُفْرِ بعد أن هدانا الله .

فيزيدون في إيدائهم يوماً بعد يوم .

وكذلك استمرُّوا ينهبون المسافرين ، ويسرقون في الميزان والمكيال عند البيع والشراء ، ولا يخافون الله . ولا يسمعون كلامَ شُعَيْب . حتى تضايق منهم شُعَيْب . وعلم أنهم لن يؤمنوا أبداً .

فَدَعَا الله أن يحكم بينه وبين هؤلاء القوم ، ويعطى المؤمنين والكفار جزاءهم الذى يستحقونه .

٦

عند ذلك اشتدَّت حرارةُ الجو ، وظلت ترتفع وترتفع ، حتى أحسَّ الناسُ أنَّ الحرارةَ تشوى وجوهَهُمْ وجلودَهُمْ ، وتخنقُ أنفاسَهُمْ ، فلا يستطيعون التنفُّس ، ويبحثون عن النَّسَمَةِ فلا

يجدونها ، لأنَّ الجوَّ خائق ، والعرقُ يسيلُ من أجسادِهِمْ ، والماء لا يُروِيهِمْ أبداً .

وظلوا على هذه الحالةِ سبعةَ أيامٍ بلياليها ، يتعذبون من الجوِّ الحارِّ المكثوم ، ويصرخون ويستغيثون ، ويصلُّون لآلهَتِهِمْ ، ويدعونها أن تُفَرِّجَ عنهم هذا الكربَ وهذا الاختناق .

وفى اليومِ الثامن شاهدوا دُخْنَةً فوق رؤوسِهِمْ تحجبُ عنهم الشمس . ففرحوا وقالوا : لقد استجابت الآلهة لدُعائنا ، وأرسلت إلينا هذه الظُّلَّة تحجبُ عنا الشمسَ المحرقة ، وستخفُّ الحرارةُ بعد ذلك ، وننجو من هذا العذابِ الأليم .

وبينما هم كذلك ، أحسَّ أهلُ مدينِ بَرْزَالٍ شديداً ، ترتجُّ منه الأرضُ تحتهم ، وتتحطمُ بسببه

المباني عليهم ، فيموتون في بيوتهم ، ولا يستطيعون الهرب منها .

وأما أصحاب الأيكة فرأوا الصواعق الملتهبة تنزل عليهم من هذه الدُّخنة التي حسَبوها ظِلَّةً ، فتُحرقهم وتصرعهم ، وتُهْلِكهم جميعا .

٧

أما شُعَيْبٌ والذين آمنوا معه ، فقد نَجَّوا من الزَّلْزَالِ في الأرض ، ومن الصَّوَاعِقِ في السماء .
فرفع رأسه إلى السماء وهو يقول :
- لقد بَلَغْتُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ رِسَالَةَ اللَّهِ ، فلم يُصَدِّقُوا ولم يُؤْمِنُوا ، واستمرُّوا في أعمالهم الرديئة القبيحة ، حتى عاقبهم الله عليها هذا العقاب الأليم . وهم

يستحقُّون ما جرى لهم ، ولن أحزن عليهم ، فهم قومٌ كافرون .

وهكذا كان مصيرهم كمصير قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، كلهم كذَّبوا الرسل ، فحقَّ عليهم العذابُ والهلاك .

٨

عاش شُعَيْبٌ بعد ذلك طويلا ، ورزقه الله رِزْقًا عظيما ، فصار عنده آلاف من الغنم يرعاهها بنفسه ويعطف عليها .

ولم يكن لشُعَيْبٍ أولادٌ ذكور ، بل كانت له بنتان .

ولما كبر وهرم لم يكن يقدر على رعي الغنم ،

فَكَانَتِ الْبُنْتَانِ تَخْرُجَانِ لِرَعِيهَا وَسَقِيهَا . وَكَانَتَا بِنْتَيْنِ
مُؤَدَّبَتَيْنِ ، وَلَا تَسْقِيَانِ الْغَنَمَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَسْقَى الرَّجَالُ
أَغْنَامَهُمْ وَيَنْصَرِفُوا ، حَتَّى لَا تَخْتَلِطَا بِالرَّجَالِ .